

الفصل التاسع عشر

لوثر وأرازموس

(١٥١٧ - ١٥٣٦)

١ - لوثر

بعد أن أجملنا الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية ، والفكرية ، التي شهدت مهد الإصلاح الديني ، نرى لزاماً علينا أن نعد من عجائب التاريخ في ألمانيا أن يتمكن رجل واحد من أن يجمع ، بلا قصد ، هذه التأثيرات في ثورة ، غيرت صورة قارة . ولسنا في حاجة إلى المبالغة في دور البطل هنا ، ذلك لأن قوى التغيير كان يمكن أن تجد تجسيماً آخر لها ، إذا استمر لوثر في خضوعه . ومع ذلك فإن منظر هذا الراهب الخشن ، وهو واقف في شك وفزع ، لا يستقر على قرار ، ضده أقوى النظم حصانة ، وأشد العادات قداسة في أوروبا ، يجعل الدم يغلي في العروق ، ويشير مرة أخرى إلى المسافة التي قطعها الإنسان وهو ينحدر من الطين أو من القرد .

ترى كيف بدأ ذلك الرجل ، الذي كان صوت عصره المدوي ، كما كان قمة من قمم التاريخ الألماني ؟ لقد كان في عام ١٥٢٦ ، كما صوره لوكاس كراناخ (١) ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره في مرحلة التحول من النحافة إلى البدانة ، صارم القسيات وإن لم يخجل من لحظة مرح قوية ، وله شعر مجع لا يزال محالك السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان - قال نحسومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان . وكانت له سمعة صريحة

لا تخفى شيئاً جعلته لا يصلح للدبلوماسية . وثمة صورة شخصية رسمها له فيما بعد كراناخ أيضاً (١٥٣٢) ظهر فيها لوثر في هيئة رجل بدين منبسط الأسارير ، له وجه مستدير عريض يجعل الناظر يحكم بأنه رجل يستمتع بالحياة . وتخلّى عام ١٥٢٤ عن مسوح الراهب ، واتخذ لباس واحد من عامة الناس ، فكان يرتدى ثوب المدرس حيناً ، ويلبس سترة وسراويل عادية حيناً آخر ، ولم يتعفف عن ارتق هذه الثياب بنفسه . وقد شكّت زوجته مرة من أن هذا الرجل العظيم اقتطع رقعة من سراويل ولده ، ليصلح بها من شأن سراويله .

ولقد انزلق إلى الزواج بطريق السهو ، واتفق في الرأي مع القديس بولس بأنه خير للمرء أن يتزوج ولا يحرق ، وصرح بأن الجنس أمر فطري وضروري كالطعام^(١) ، واحتفظ بالفكرة السائدة في القرون الوسطى ، والتي تذهب إلى أن الجماع أمر آثم ، حتى في الزواج ، ولكن «الله يستر الخطيئة»^(٢) ، وندد بالعدرة باعتبارها انتهاكاً لسنة الله التي تقضى بالتناسل والتكاثر . وإذا «لم يستطع واعظ بالإنجيل أن يعيش محتفظاً بعفته دون أن يتزوج ، فلنسمح له باتخاذ زوجة ، لأن الله خلقها بلسماً لذلك الجرح»^(٤) . وكان يعد طريقة البشر في التناسل منافية للعقل بعض الشيء ، على الأقل عند تأمل الماضي ، ورأى أنه «لو استشارني الله في الأمر لأشرت عليه بأن يستمر في خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم»^(٥) . وكان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانياً ، فالله قد خلقها للحمل والطهي والصلاة لا لأي شيء آخر ، وهو القائل «انتزع النساء من تدبير شئون المنزل ، تجدهن لا يصلحن لشيء»^(٦) . و «إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس في هذا ضرر ، دعهن يلاقين حتفهن ما دمن يحملن ، فقد خلقن لهذا»^(٧) . ويجب على المرأة أن تمنح زوجها الحب ، وأن تحافظ على شرفه ، ولا تعصى له أمراً ، وعليه أن يحكمها ، ولكن برفق ، ويجب عليها أن تلتزم

مجالها وهو البيت ، ولكنها تستطيع هناك أن تفعل بالأطفال ببناها أكثر مما يستطيع الرجل أن يفعل بقبضتيه^(٨) . وبين الرجل والزوجة يجب ألا يكون هناك ملكى وملكك ، وذلك لأن كل الممتلكات يجب أن تكون بينهما على المشاع^(٩) .

وكان لوثر يكنّ كراهية الذكر العادية للمرأة المتعلمة ، وقال عن زوجته « بودى أن تتلو النساء صلاة الرب قبل أن ينبسن بشفة »^(١٠) ، ولكنه ازدرى الكتاب الذين ألفوا مقالات في هجو النساء ، وقال : « مهما يكن في النساء من عيوب فإننا يجب أن نردعهن في الخلو برفق . . . لأن المرأة قارورة هشّة »^(١١) . وعلى الرغم من صراحته الفظة في أمور الجنس والزواج ، فإنه لم يكن يخلو من الإحساس بالاعتبارات الجمالية ، ويقول : « الشعر أجمل زينة للمرأة . وقد اعتادت العذارى قديماً أن يرسلن شعورهن ، إلا إذا كن يرتدين ثياب الحداد ، وأنا أحب أن ترسل النساء شعورهن حتى يسقط على ظهورهن ، فهو منظر من أروع المناظر وألطفها »^(١٢) . (وكان جوليا فارنيزى المرسل) .

ويبدو أن لوثر لم يتزوج لإشباع حاجة من حاجات الجسد . وقال في نوبة من المرح ، إنه قد تزوج لإرضاء والده ، وعلى الرغم من أنف الشيطان والبابا ، ولكنه استغرق وقتاً طويلاً لكي يستقر على رأى في هذا الموضوع ، ثم حسم الأمر له . وعند ما تركت بعض الراهبات ديرهن بناء على توصية منه ، أخذ على عاتقه أن يجد لهن أزواجاً . ولم يبق في آخر الأمر منهن واحدة لم تتزوج ، إلا كاترين فون بورا ، وهى امرأة كريمة المحتد على خلق قويم ، ولكنها لم تخلق لتثير عاطفة متعجلة ، وكانت قد وضعت أنظارها على طالب شاب من فيتنبرج ، ينحدر من سلالة نبيلة ، وفشلت في أن توقعه في حبائلها ، وعملت مربية لكي تكسب ما يسد رمقها . واقترح عليها

لوثر أن تزوج من الدكتور بجلاتز ، فردت عليه بأنها لا تقبل هذا الدكتور ، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من هرامسدورف أو الدكتور لوثر . وكان لوثر في الثانية والأربعين من عمره وقتذاك ، بينما كانت كاترين في السادسة والعشرين ، ورأى أن التفاوت في السن يحرم عليه هذا الزواج ، غير أن أباه حثه على أن يحافظ على اسم الأسرة ، وهكذا تزوج الراهب السابق في ٢٧ يولية سنة ١٥٢٥ من الراهبة السابقة ،

ومنحهما الأمير المختار الدير الأوغسطيني الكئي : منه مقررًا لهما ، ورفع مرتب لوثر إلى ٣٠٠ جيلد (٧,٥٠٠ دولار) في العام ، ثم زيد هذا المرتب فيما بعد إلى ٤٠٠ ، ثم إلى ٥٠٠ . واشترى لوثر مزرعة أدارتها كاتى ، وأخبتها وأنجبت له ستة أطفال ، وتعهدهم بالرعاية في إخلاص ، ولبت كل احتياجات مارتن المنزلية من معصرة للخمر بالبيت ، وبركة للسماك ، وحديقة للخضر ، وربت له الدواجن والخنازير . وقد أطلق عليها اسم « سيدى كاتى » وأشار بهذا إلى أن في وسعها أن تضعه في موضعه إذا ما نسى خضوع الرجل بيولوجيا للمرأة ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتحمل الكثير من ثوراته العاصفة بين آن وآخر ، وثقته التي تصل إلى حد عدم التبصر ، وذلك لأنه كان لا يعبأ قط بالمال ، وكان كريماً إلى حد التهور ، ولم يتسام من كتبه حقوق التأليف ، على الرغم من أنها عادت بثروة طائلة على ناشرها ، وتميط رسائله إلى كاترين أو عنها اللثام عن حبه المتزايد لها ، وعن زواج موفق بصفة عامة . ولقد ردد بطريقته الخاصة ما قيل له في شبابه « إن أعظم نعمة يمنحها الله للانسان زوجة تقية رقيقة ، تخشى الله وتحب البيت » (١٣) .

وكان أباً صالحاً يعرف بالنظرة كيف يمزج على أحسن وجه بين التأديب والحب . ويقول : « عاقب إذا لم يكن هناك بد من ذلك ولكن قدم قطعة الحلوى (بونبون) مع العصا » (١٤) . وألف أغنيات لأطفاله ، وغناها معهم ، وهو يعزف على العود ، وتعد خطاباته إلى أطفاله من درر الأدب الألماني .

وإذا كان قد استطاع بقوة شكيمته أن يواجه إمبراطوراً في الحرب ، فإن شجاعته قد انهارت بموت ابنته الأثيرة ماجدالينا ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقال : « إن الرب لم يهب أسقفاً نعمة كبرى فى ألف عام كما وهبها لى ممثلة فيها » (١٥) . وكان يتلو الصلوات ليلاً ونهاراً ، طالباً لها من الله الشفاء ، وقال : « رباه إنى أحبها كثيراً ، ولكن إذا شئت إرادتك تعالى أن تأخذها ، فإنى أتخلى عنها لكم عن طيب خاطر » (١٦) . وقال لها : « ابنتى الصغيرة العزيزة لينا ، إنك تحبين أن تظلى هنا مع أبىك . أتريدى أن تذهبي إلى ذلك الأب الآخر ؟ » فأجابت لينا : « نعم يا أبتاه كما يشاء الله » . وعند ما قضت نحبها بكها طويلاً بكاءً مريراً ، وبينما كانت توسد فى الثرى ، خاطبها قائلاً كما لو كانت حية ترزق : « أنت تحبين وسوف تنهضين وتشرقين كالنجوم والشمس . إنه لأمر غريب أن يعرف الإنسان أنها ترقد فى سلام ، وأن كل شىء على ما يرام ، ومع ذلك يشعر بالأسى والحزن » (١٧) .

ولم يقنع بسة أطفال فأوى فى بيته كثير الغرف بالدير أحد عشر يتيماً من أولاد أخيه وأخته ، ورباهم ، وكثيراً ما جلس معهم إلى المائدة ، وتجاذب معهم أطراف الحديث فى غير ملل ، وحزنت كاترين لاحتكارهم إياه . وأبدى بعضهم ملاحظات جريئة على حديثه معهم حول المائدة . وليس من شك فى أن حصيلة ٦٥٩٦ تدوين لأحاديثه تضارع أحاديث جونسون لبوزويل ، وأحاديث نابليون المدونة ، فى الوزن والذكاء اللماح والحكمة .

ويجب علينا عند الحكم على لوثر ، أن نتذكر أنه لم يعد سلفاً أحاديث المائدة هذه ، وقل بين الرجال من تعرض تماماً إلى استراق السمع من البشر ، فهنا لا فى المحادلات التى كانت فى ميدان المعركة اللاهوتية ، نجد لوثر فى بيته على سجيته . ونذكر ، أولاً وقبل كل شىء ، أنه كان إنساناً لا مجرد

هدواة ، وأنه عاش حياته وكتب عنها . ولا يمكن شخص صحيح الجسم أن ينفس على لوثر تلذذه بأطيب الطعام وشراب الجعة ، أو استمتاعه المشرع بكل المباح ، التي استطاعت كاترين بورا أن توفرها له . ولعله كان حرياً به أن يكون ، بدافع الحرص ، أكثر تحفظاً في هذه الأمور ، ولكن التحفظ جاء مع المتطهرين ، ولم يعرفه الإيطاليون في عصر النهضة ، ولا الألمان في عهد الإصلاح الديني ، بل إننا نجد أن أرازموس الرقيق يصدمننا بحديثه الفسيولوجي الصادق . كان لوثر يأكل بإفراط ، ولكنه استطاع ردع نفسه بالصوم الطويل ، وكان يفرط في الشراب ، ولكنه كان يبدى الأسف ، ويعتد الشرب رذيلة قومية ، ومع ذلك فإن الجعة كانت ماء الحياة بالنسبة للألمان ، كالنبيد بالنسبة للإيطاليين والفرنسيين ، وكان يمكن أن يكون الماء سما زعافاً في تلك الأيام الخوالي ، ومع ذلك فإننا لم نسمع قط عن إفراطه في السكر حتى يفقد صوابه ، وقال : « إذا كان الله يغفر لي أنى صلبته بالقداسات عشرين عاماً مضت ، فإنه يستطيع أن يتحملني لأنى أتناول شراباً طيب المذاق ، من آن لآخر ، لكي أكرمه » (١٨) .

وبدت أخطاؤه واضحة للعين والأذن ، فقد كان الفخر يشيع وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع ، وكان عقيدياً ضد العقيدة ، مفرطاً في الحماسة لا يبدى أية مجاملة لخصومه ، ويتشبهت بالخرافات ، في الوقت الذي يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه في الوقت نفسه — وهكذا لم يكن قدوة للصلافة أو مثلاً أعلى للفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلاً « لم أكن أتوانى عن الانقضاض على خصومي بلسان حاد ، ولكنه ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟ » (١٩) وتحدث عن المراسيم البابوية ، فوصفها بأنها قدارة وروث (٢٠) ، وقال عن البابا إنه : « بذرة الشيطان » أو الملازم ، ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، أما الأساقفة فقد نعهم بأنهم « ديدان » وهراطقة كفر « وقردة جهلة » . وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال إنها بمثابة دماغ إنسان « بشارة

البهيم في سفر الرؤيا » ، وقال عن الرهبان إنهم أسوأ من الجلادين أو السفاحين
أو على أحسن الفروض « براغيث فوق فراء الرب القادر » (٢١) . ولنا أن نتصور
إلى أي حد كان المستمعون إليه يجحدون متعة في هذا العبث . وقد قال : « إن
الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذي اضطر البابا إلى إعفائه من رقابته هو
العَجْزُ ! » (٢٢) وكتب يصور رجال الدين الكاثوليك بقوله : « إن نهر الراين
لا يكاد يتسع لكي يفرق فيه كل عصبة المغتصبين الرومانيين الملائعين . . .
من كرادلة ومطارنة وأساقفة ورهبان » (٢٣) أو إذا نقص الماء « لعل الله يرضى
بأن يرسل عليهم صيِّباً من النار والكبريت كالذي قضى على سودوم
وعمورة » (٢٤) ، وهذا يذكر الإنسان بالتعليق الذي صدر من الإمبراطور
جوليان : « ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت ضاغب » (٢٥) .
ولكن لوثر عجب مثل كلايف لاعتداله ، وقال : « يعتقد الكثيرون أنني شديد
الشراسة ضد البابوية ، ولكنني على النقيض من ذلك أشكو من أنني ، للأسف
لبن العريكة إلى حد كبير . وكم أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ،
وأن تكون كل ريح صاعقة (٢٦) : ولسوف ألعن وأنتهر الأفاقين حتى أثنى
في لحدى ، ولن ينالوا مني كلمة مهذبة . . . لأنني لا أستطيع أن أصلي دون
أن أصيب اللعنات في الوقت نفسه . وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك
اسمك » فلأنني يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مغضوب عليه » .
وإذا كان ثمة ما يدفعني إلى أن أهتف « لتأت مملكتك » فلأن مضطراً إلى أن
أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة ، هالكة لا محالة . والحق أنني أتلو
صلواتي سنوياً على هذا النحو كل يوم وسراً في قلبي دون توقف (٢٧) ، ولأنني
لا أعمل أبداً على خير وجه إلا عند ما أستلهم الغضب ، ذلك أنني أستطيع ،
عند ما أكون غاضباً ، أن أكتب ، وأن أصلي ، وأن أعظ على خير وجه ،
لأن مزاجي بأسره يستثار ، وإدراكى يزداد حدة » (٢٨) ، ومثل هذه العاطفة
البلاغية كانت تتفق مع روح العصر . ويعترف الكاردينال جاسكيه العلامة
قائلاً : إن بعض الوعاظ وكتاب الرسائل من طائفة المحافظين كانوا

يضارعون لوثر في هذه الناحية» (٢٩) . وكان الطعن متوقفاً من المتصارعين في مجال الفكر ، ويستطيعه المستمعون ، وكان الشاك يخامر الناس في أن الأخلاق المهذبة دليل على الجبن . وعند ما وجهت زوجة لوثر اللوم إليه بقولها : « أنت فظ للغاية يا زوجي العزيز » - رد عليها مجيباً : « إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس » (٣٠) وإن جواباً لينا يمكن أن يطغىء سورة الغضب ، ولكنه لا يستطيع أن يقلب البابوية رأساً على عقب ، وحرى بأى إنسان هذب حاشيته الكلام الدمث ، أن يتنكب معركة مميتة مثل هذه . وقد اقتضى الأمر بجلداً صفيقاً - أغلظ من جلد أرازموس - لنبد الأوامر البابوية والحرمان من غفران الكنيسة وأوامر التحريم الإمبراطورية .

واقضى الأمر أيضاً إرادة قوية ، وهذه كانت صخرة القاع بالنسبة إلى لوثر ، ومن هنا كانت ثقته بنفسه وعقيدته وشجاعته وتعصبه . ومع ذلك فإنه كان لا يخلو من بعض الفضائل الرقيقة ، ففي أواسط عمره كان مثلاً أعلى في الروح الاجتماعية والمرح ، ودعامة قوية لكل من هم في حاجة إلى العزاء أو العون . ولم يشمخ بأنفه أو يتأنق في ملبسه ، ولم ينس قط أن أباه كان فلاحاً ، واستهجن نشر مجموعة أعماله ، وطلب من قرائه أن يدرسوا الكتاب المقدس بدلا منها ، واعترض على إطلاق اسم « لوثرية » على الكنائس التي كانت تتبع زعامته . وعند ما كان يعظ كان يحدث سامعيه باللغة التي يفهمونها . وكان الدعابته مسحة ريفية إذ كانت خشنة مرحة متحللة من كل القيود ، مثل دعابات « رابليه » ، وقال شاكيًا : « إن أعدائي يفحصون عن كذب كل ما أفعل ، فإذا ضرطت في فيتنبرج فلنهم يشمون ربيع الضرطة في روما » (٣١) . وقال : « ترتدى النساء النقاب بسبب الملائكة ، أما أنا فأرتدى السراويل بسبب البنات » (٣٢) . وليس من شك في أن الكثيرين منا قد أطلقوا مثل هذه الدعابات الساخرة ، ولكنهم

لم يجدوا مثل هؤلاء الرواة القساة . والرجل الذي تفوه بمثل هذه الدعايات كان يحب الموسيقى وهي هذا الجانب من عبادة الأوثان ؛ وهو نفسه الذي ألف لهم أناشيد رقيقة أو عاصفة ، وأسلمها - وفي هذا تحامل لاهوتي كان راكداً لحظة من الزمن - إلى أناشيد متعددة الأصوات ، استخدمت من قبل في الكنيسة الرومانية ، وقال : « لن أتخلى عن موهبتي الموسيقية المتواضعة مقابل أى شيء مهما كان عظيماً . . . وأنا أرى أنه . . . ليس هناك فن بعد اللاهوت يمكن أن يضارع الموسيقى ، لأنها وحدها بعد اللاهوت تمنحنا . . . راحة القلب ومسرة الفؤاد » (٣٣) .

وأدى به لاهوته إلى أخلاقيات تؤمن باللين ، لأنه علمه أن الأعمال الصالحة لا تكسب صاحبها الخلاص إذا لم تقترن بالإيمان بافتداء المسيح للناس ، كما أن الخطيئة لا يمكن أن تضيع الخلاص ، إذا بقي مثل هذا الإيمان . وكان يرى أن خطيئة ترتكب بين آن وآخر ، قد تشجعنا على اجتياز الصراط المستقيم . وعند ما سئم رؤية جسد ميلانكتون وهو يندوى من أثر الوسواس الكئيبة حول زلات صغيرة تتعارض مع القداسة ، قال له مداعباً في مرج أصيل : « أكثر من الخطايا ، فالله لا يغفر إلا لرجل غارق في الخطايا إلى أذنيه » ، ولكنه يسخر من المفتي المصاب بفقر الدم (٣٤) ومع ذلك فإن من السخف أن نصدر حكماً على لوثر بالإدانة على أساس هذا المزاح العارض . وثمة أمر واضح في جلاء وهو أن لوثر لم يكن متطهراً وهو يقول : « إن مشيئة الله الحبيب هي أن نأكل ونشرب ونمرح » (٣٥) . ويقول : « إني أنشد المتعة وأقبلها حينما أجدها ونحن نعلم الآن ، ولله الحمد ، أننا نستطيع أن نكون سعداء وضمائرنا مرتاحة » (٣٦) . ونصح أتباعه بأن يحتفلوا ويرقصوا يوم الأحد . وأقر ألعاب التسلية ولعب الشطرنج ، ووصف اللهو بورق اللعب ، بأنه تحويل لا ضرر منه للعقول (٣٧) ، التي لم تنضج بعد ، وقال كلمة حكيمة عن الرقص : « إن الرقصات أعدت لكي تعلم الدمثة بين

الصحيحة ، وتعقد الصداقة والتعارف بين الشبان والفتيات ، وهنا يمكن ملاحظة صلاتهم ، وترتيب لقاء شريف عابر بينهم ، وأنا نفسي لا مانع عندي من حضوري معهم في بعض الأحيان ، ولكن الشباب سيكون أقل إمعاناً في الرقص لو أنني فعلت» (٣٨) . وأراد بعض الوعاظ البروتستانت تحريم اللهو ، ولكن لوثر كان أكثر تسامحاً وقال : « يجب على المسيحيين ألا يعرضوا عن اللهو ، لأن فيه أحياناً فظاظة وفحشاً ، فما أحراهم ، من أجل هذه الأسباب نفسها ، أن يتخلوا أيضاً عن الكتاب المقدس» (٣٩) .

فاذا نظرنا لكل هذه الاعتبارات ، فإن مفهوم لوثر عن الحياة كان صحيحاً باعثاً على المرح ، إلى درجة ملحوظة لإنسان كان يعتقد أن « كل النوازع الفعارية ليست بعيدة عن الرب أو ضده» (٤٠) ، « وأن كل تسعة أرواح من عشرة قد عليها الله أن تخلد في الجحيم» (٤١) . والحق أن الرجل كان خيراً من لاهوته إلى حد كبير .

وكان عقله قوياً ، وإن غامت عليه إلى حد بعيد روائح عفن شبابه ، وصبغته الحرب باللون الأحمر ، فحالت بينه وبين التفكير في فلسفة عقلانية . وكان يعتقد ، مثل معاصريه ، في الغيلان والساحرات والشياطين ، وقدرة الضفادع (٤٢) البرية الحية على الشفاء ، والكوايبس الحبيثة ، التي تبحث عن العذارى في حمامتين أو في مخادعهن ، وتفزعهن ويدفعن بهن إلى الأمومة (٤٣) . ويخر من التنجيم ، واستخدم مع ذلك في حديثه اصطلاحاته أحياناً ، وامتدح الرياضيات ، من حيث أنها « تعتمد على الأدلة والبراهين الثابتة» (٤٤) ، « وأعجب بما توصل إليه الفلك في جرأة في مجال النجوم ، ولكنه ، شأنه في هذا شأن جميع معاصريه ، رفض النظام الكوبرنيقي في الفلك ، باعتباره مناقضاً للاكتاب المقدس ، وأصر على أن العقل يجب أن يلزم الحدود التي وضعتها له العقيدة الدينية .

وليس من شك في أنه كان محقاً في حكمه الذي يذهب إلى أن الشعور ،

وليس الفكر ، هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم ، أما الفلاسفة فإنهم ، جيلاً بعد جيل ، يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء ينصب نفسه حبراً على الكحل . وعلى هذا فإن لوثر كان يصلي ، بينما كان أرازاموس يفكر تفكيراً منطقياً . وبينما كان أرازاموس يتملق الأمراء ، كان لوثر يخاطب الرب - وقتذاك في كبرياء امرئ ، خاض بعزم ، معارك في سبيل الرب ، فأصبح له الحق في أن يسمع وقتذاك كطفل ضل في فضاء لا نهاية له ، وكان واثقاً أن الرب يقف في جانبه ، فواجه عقبات يصعب التغلب عليها وانتصر . وقال : « إنى أحتمل حقد العالم بأسره ، ومقت الإمبراطور والبابا وكل بطانته . حسن ، باسم الرب إلى الأمام ! » (٤٥) وكان لديه من الشجاعة ما يكفي لأن يتحدى أعداءه ، فلم يكن يدور بخلده ما يدفعه للشك في صدقه . كان يعتقد أن عليه أن يفعل ما ينبغي عليه أن يفعل .

٢ - الهراطقة المتعصبون

من المفيد ملاحظة كيف انتقل لوثر من التسامح إلى العقيدة بازدياد قوته ويقينه . ومن بين « الأخطاء » ، التي اتهم بها البابا ليو العاشر في منشوره **Exsurge Domine** لوثر ، أنه قال : « إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس » وفي خطاب مفتوح إلى طبقة النبلاء المسيحيين (١٥٢٠) نصب لوثر « كل رجل قساً » ، وأعطاه الحق في أن يفسر الكتاب المقدس ، وفق حكمه الخاص ، وفي ضوء فهمه الشخصي (٤٦) ، وأضاف قائلاً : « يجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق » (٤٧) وفي مقال له بعنوان عن السلطة الزمنية (١٥٢٢) كتب يقول : -

إن الله هو المتصرف في الروح وان يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحاً جلياً ، بحيث يفهمه كل إنسان ، ولكي يرى نبلاؤنا وأمرأوتنا وأساقفتنا إلى أي حد تبلغ حماقتهم ، عند ما ينشدون

إكراه الناس . . . على الإيمان بشيء أو بآخر . . . لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان . . . إن السلطة الزمنية يجب أن تقنع بالالتفات إلى شئونها الخاصة ، وأن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاءون ، وألا تكره أحداً على شيء بالقوة ، لأن الإيمان عمل يتم بحرية ولا يكره عليه أحد . . . والإيمان والهرطقة لا يشتدان إلا عند ما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم ، بلا سند من كلمة الله (٤٨) .

وفي خطاب بعث به لوثر إلى الأمير المختار فردريك (٢١ أبريل سنة ١٥٢٤) طلب منه التسامح مع منتسر وآخر من أعدائه . وقال له : « يجب ألا تمنعهما من الكلام . يجب أن تكون هناك طوائف ويجب أن تتعرض كلمة الله لمعركة . . . دعنا نترك بين يديه تعالى الصراع ، ونطلق الحرية لصدام العقول » . وبينما كان الآخرون يدافعون . وفي عام ١٥٢٨ عند ما كان الآخرون يدافعون عن عقوبة الإعدام للمعمدانين أشار بأنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يكتب بنفهم (٤٩) .

وعلاوة على هذا فإنه أوصى في عام ١٥٣٠ بأن تخفف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفي . حقاً أنه تحدث في هذه السنوات الحرة كما لو كان يتمنى من أتباعه ومن الله أن يغرقوا البابويين جميعاً ، أو يتخلصوا منهم ، بيد أن هذا كان مجرد « حملة خطابية » ، لم يكن يقصدها بصفة جدية . ولقد كتب في يناير عام ١٥٢١ : « لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل » ، وفي شهر يونية من ذلك العام وجه اللوم للطلبة في أرفورت ، لأنهم هاجموا القساوسة ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يعارض في « تخويفهم » قليلاً لتحسين لاهوتهم (٥٠) . وفي مايو عام ١٥٢٩ أدان خطأ ، أعدت لتحويل الأبرشيات الكاثوليكية عنوة إلى البروتستانتية ، وفي أواخر عام ١٥٣١ أخذ يلقي الناس « نحن لا نستطيع ولا يجب أن نكره أي إنسان على اعتناق العقيدة » (٥١) .

ولكن من الصعب على رجل يمتاز بخلق متين وإيجابي مثل لوثر أن يدافع عن التسامح ، بعد أن أصبح مركزه آمناً إلى حد ما . فرجل مثله ، على يقين من أنه يحمل كلمة الله ، لم يكن بوسعته أن يتسامح فيما يتناقض معها . وكان التحول إلى التعصب أسهل فيما يختص باليهود . فحتى عام ١٥٣٧ كان لوثر يرى ، أن من الواجب أن يغتفر لهم احتفاظهم بعقيدتهم الخاصة ، « ما دام الأغنياء من بابواتنا وأساقفتنا والسوفسطائين من فلاسفتنا ورهباننا ، هؤلاء الأجلاف الحمقى ، تعاملوا مع اليهود ، بأسلوب يدفع أى مسيحي إلى أن يفضل أن يكون يهودياً . والحق أنى لو كنت يهودياً ، ورأيت مثل هؤلاء المعتوهين والحمقى يشرحون معنى المسيحية ، لآثرت أن أكون خنزيراً لا مسيحياً . . . وأنا أود أن أنصح كل امرئ ، وأرجوه أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، وبوسعى أن أتوقع في هذه الحالة أن يجيئوا إلينا زرافات ووحداً » (٥٢) . ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت في بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودي ، وذلك في رفضها للرهبانية والعزوبة المفروضة ، على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها (باستثناء لوثر نفسه) لأخلاقيات جنسية أشد صرامة مما تتطلبه الكاثوليكية . وقد خاب أمله عند ما لم يقيم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداؤه لتقاضى فائدة على أن ينقلب ضد مقرضى الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة ، وعند ما نفي جون الأمير المختار اليهود من ساكسونيا (١٥٣٧) ، رفض لوثر التماساً يهودياً للتوسط في الأمر . وفي كتابه حديث المائدة جمع بين « اليهود والبابويين » ووصفهم بأنهم تعساء كفرة . . . « وأن الطائفتين جوربان صنعا من قطعة قماش واحدة » (٥٣) . واشتغرق في سنواته الأخيرة في نوبة غضب جامح ضد السامية ، وندد باليهود ، ووصفهم بأنهم « أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبثاء ممقوتين » وطالب بإشعال النار في مدارسهم وهياكلهم حتى تتقوض دعائمها ، وقال : -

ودعوا كل من يستطيع أن يلتقي عليهم كبريتاً وزفتاً ، وإذا كان في
وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم ، فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا . . .
وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية ، حتى يرى الله أننا مسيحيون
حقاً . ولتحطم بيوتهم وتدمر أيضاً . . . ولتنزع منهم كتب صلواتهم
وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضاً ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلتقوا
الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعداً ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق
في وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ،
ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكتزون من الذهب والفضة ، ولتوضع
في الحفظ والصون . وإذا لم يكف هذا فليطردوا من البلاد كما لو
كانوا كلاباً مسعورة (٥٤) .

ولم يحدث قط أن غلبت الشيخوخة على لوثر ، ففي عام ١٥٢٢ كان
لا يزال متحدياً للباباوات وكتب يقول : « إني لا أقبل أن يحكم على عقيدتي
أحد حتى لو كان من الملائكة ، وكل آمن لا يتلقى عقيدتي بالقبول ان يستطيع
الخلاص » (٥٥) . وما أن حل عام ١٥٢٩ حتى استخلص فروقاً دقيقة بين
العقيدتين ، وقال : -

« لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن يباحق
بها ضرراً . فليقدم نخصومنا ما لديهم من اعتراضات ، وليستمعوا إلى
ردودنا ، فإذا ما اهتموا فيها ونعمت ، وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم
ويؤمنوا بما يشاءون . . . ولكي نتجنب المتاعب يجب ، إذا أمكن ، ألا
نعانى من التعاليم المتناقضة في نفس الولاية ، ويجب أن يكره الجميع بما فيهم
الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة في الكنيسة ، والتلاوم
معها في ظاهر السلوك (٥٦) .

وهكذا اتفق لوثر وقتذاك مع الكنيسة الكاثوليكية في أن المسيحيين
في حاجة إلى يقين ثابت ومذاهب محددة ، وإلى كلمة الله الحق ، التي

يستطيعون أن يحيوا بها ويموتوا عليها ، ولما كانت الكنيسة في القرون الأولى من المسيحية قد انقسمت وضعفت بكثرة الطوائف الجامحة ، فقد أحست بأنها مضطرة إلى تحديد عقيدتها ، وإقصاء كل المخالفين لها ، ولهذا فإن لوثر ، وقد راعه وقتذاك تنوع الطوائف المتنازعة ، التي نبتت من بذرة الحكم الخاص ، انتقل خطوة خطوة من التسامح إلى التعصب المذهبي ، وقال شاكيًا : -

« إن كل الناس الآن يتأهبون لانتقاد الإنجيل ، فكل أحق مأفون تقريباً أو كل سوفسطائي مهرف ، يجب أن يكون ، حقاً ، دكتوراً في اللاهوت » . وآلمه ما وجهه إليه الكاثوليك من نقد جارح بأنه أطلق عقاب فوضى ، لا تجد من يكبح جماحها ، في العقائد والأخلاقيات ، وانتهى في الرأى مع الكنيسة إلى أن النظام الاجتماعى فى حاجة إلى شىء من حسم المناقشة ، وشىء من السلطة المنظمة ، ليخدمها باعتبارها مرساة للعقيدة » فكيف يجب أن تكون هذه السلطة ؟ على هذا السؤال أجابت الكنيسة بأن هذه السلطة هى الكنيسة نفسها لأن الكائن الحى وحده هو القادر على تعديل نفسه وكتبه المقدسة إلى صورة مغايرة لا مفر منها ، وقال لوثر : « لا ، إن السلطة الوحيدة والأخيرة يجب أن تكون الكتاب المقدس ، ما دام الجميع يسلمون بأنه كلمة الله .

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمرأ صريحاً يزعمون أنه صدر من فم الرب ، وهو يقضى بإعدام المراهقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تخفيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو زوجتك فى حضنك . . . ولكنك يجب أن تقتله لا بحالة ، ويجب أن تكون يدك هى أول يد تنفذ فيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، تصرفت الكنيسة فى إبادة طائفة الإلبيجنسن فى القرن الثالث عشر ، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لما

قامت به محاكم التفتيش من إحراق . وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فإنه لم يصل قط إلى درجة القسوة التي عاملت بها الكنيسة من يخالفونها في الرأي ، ولكنه سار قدماً في نطاق وحدود سلطته ، لإقحامها سلمياً بقدر ما استطاع . وفي عام ١٥٢٥ استعان بلوائح موجودة خاصة بالرقابة في ساكسونيا وبراندنبرج لسحق « العقائد الخبيثة » التي يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلي ، وفي عام ١٥٣٠ نصح ، في تفسيره للمزمور الثاني والثمانين ، الحكومات بإعدام كل الهرطقة ، الذين ينادون في عظاتهم بإثارة الشغب ، أو مناهضة الملكية الخاصة ، وقال : « إن هؤلاء الذين يعارضون في تعاليم مادة واضحة في العقيدة . . . مثل المواد التي يحفظها الأطفال عن العقيدة ، كالمادة التي تقول « إذا نادى أى واحد في تعاليمه بأن المسيح ليس إلهاً بل مجرد إنسان » (٦٠) . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية في التعبير عن الرأي والعقيدة بين الأتراك أكثر مما يوجد في الولايات اللوثرية ، وانضم ليوجد من أنصار زونجلي إلى كارلشتادت في وصف لوثر بأنه بابا آخر . ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نلاحظ أن لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح في أخريات أيام حياته . ولقد نصح في آخر عظة له بالتخلي عن كل المحاولات للقضاء على الهرطقة عنوة ، وقال : يجب تحمل الكثالكة واللامعمدانيين في صبر حتى يوم القيامة ، عند ما يتولى أمرهم المسيح » (٦١) .

وقد ضارع مصلحون دينيون آخرون لوثراً ، وفاقوه في مطاردة الهرطقة فقد حث بوسر الستراسبورجى السلطات المدنية في الولايات البروتستانتية على إبادة كل من يعتنق ديناً « زائفاً » ، وقال : إن مثل هؤلاء الناس أسوأ من القتلة ، وأنه يجب القضاء حتى على زوجاتهم وأولادهم وماشيئهم (٦٢) ، وقبل ميلانكتون ، الرقيق الحاشية نسبياً ، أن يرأس التفتيش العلماني الذي قمع حركة اللامعمدانيين في ألمانيا بالسجن أو الموت . وتساءل قائلاً : « لماذا تشفق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟ » . ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن

الله قد قضى على كل اللامعمدانيين بعذاب جهنم (٦٣) . وأوصى باعتبار رفض تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقي للمسيح في القربان المقدس ، جرائم تستحق أن يعاقب عليها بالإعدام (٦٤) . وأصر على عقوبة الموت لكل طائفي يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ، أو لكل من يشك في أن الإيمان بأن المسيح يمكنه ، باعتباره الذي كفر عن خطايا البشر ، أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار (٦٥) . وهلل ، كما سوف نرى ، لإعدام سيرفيتوس . وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام (٦٦) . وطالب بالقضاء على كل الكتب ، التي تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية ، وعلى هذا فإن كتابات زونجلي وأتباعه وضعت رسمياً في قائمة الكتب الممنوعة في فيتنبرج (٦٧) ، وبينما كان لوثر يبنى الكاثوليكية من المناطق التي يحكمها الأمراء اللوثيريون ، آثر ميلانكتون توقيع العقوبات البدنية ، واتفق الاثنان في الرأي بأن السلطة المدنية مرتبطة بواجب نشر « شريعة الرب » ورفع شأنها . أي رفع شأن مذهب لوثر (٦٨) ، ومهما يكن من أمر فإن لوثر أشار بأنه حيث توجد طائفتان في ولاية فإن الأقلية يجب أن تخضع للأغلبية : ففي إمارة تغلب عليها الكاثوليكية يجب على البروتستانت أن يخضعوا ويهاجروا ، وفي مقاطعة ترجح فيها كفة البروتستانت يجب على الكاثوليكية أن يخضعوا ويرحلوا ، وإذا قاوموا فإنهم يجب أن يعاقبوا بشدة (٦٩) .

وقبلت السلطات البروتستانتية ، وهي في هذا قد حذت حذو السوابق الكاثوليكية ، الالتزام بالحفاظ على المواطنة الدينية .

وأصدر مجلس المدينة في أوجسبورج (١٨ يناير سنة ١٥٣٧) مرسوماً يحرم العبادة الكاثوليكية ويقضى بنق كل من لا يقبل اعتناق العقيدة الجديدة ، بعد ثمانية أيام .

وبعد انقضاء هذه المهلة من العفو بعث المجلس بالجند للاستيلاء على

كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان والراهبات . وأصدرت (٧٠) فرانكفورت - الواقعة على الماين - قانوناً مماثلاً ، وانتشرت موجة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم إقامة الصلوات الكاثوليكية في الولايات التي يسيطر عليها البروتستانت (٧١) ، وانتهج البروتستانت فرض رقابة على المطبوعات وكانت قد فرضت فعلاً في مناطق كاثوليكية ، وعلى هذا أصدر جون الأمير المختار في ساكسونيا ، بناء على طلب لوثر وميلانكتون ، (عام ١٥٢٨) منشوراً يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى أو اللامعمداني ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما وجاء فيه : « على كل من يعلم بحدوث شيء من هذا ، أو قيام أى أحد بعمله ، سواء أكان أجنبياً أو من المعارف ، أن يبلغ إلى . . . الحكام في قهذا المكان لكي يُلقي القبض على الآثم ويعاقب في الوقت المناسب . . . وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر . . . ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم » (٧٢) .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة والرقابة أيضاً مقتدين في هذا بالكثالكة . وأعلن حزب أوجسبورج عام ١٥٣٠ حق الكنيسة اللوثرية في حرمان كل عضو يرفض الاعتراف بعقيدة لوثرية أساسية (٧٣) من غفران الكنيسة . وقال لوثر مفسراً : « على الرغم من أن الحرمان من غفران الكنيسة في البابوية قد أسىء استعماله بطريقة منحجلة ، وجعل منه البابويون مجرد تعذيب للناس فإننا يجب ألا نعاني منه حتى نكفر ، واكن يجب أن نحسن استخدامه كما أمر المسيح » (٧٤) .

٣ - العلماء الإنسانيون والإصلاح الديني

إن العقيدية المتعصبة للمصلحين الدينيين ، وعنف كلامهم وتشيعهم الطائفي واحتقارهم ، وتدميرهم للفن الديني ، ولاهوتهم القائل بالخير قضاء وقدراً وعدم اكتراثهم بالتعليم الدنيوي وتأكيدهم المتجدد للشياطين والجحيم ،

وتركيزهم على الخلاص الشخصي في حياة بعد القبر ، كل هذه شاركت في تنفير علماء الإنسانيات من الإصلاح الديني ، فقد كان المذهب الإنساني ردة وثنية إلى الثقافة الكلاسيكية ، أما البروتستانتية فقد كانت عودة تتسم بالورع إلى أوغسطين الحزين ، إلى المسيحية الأولى ، بل إلى الدين اليهودي في العهد القديم ، وتجدد النضال بين الهلينية والعبرية . وكان علماء الإنسانيات قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً داخل حظيرة الكاثوليك وقبضوا على زمام البابوية في شخص نيكولاس الخامس وليو العاشر ، ولم يتسامح معهم البابوات فحسب ، بل إنهم أسبغوا عليهم حمايتهم ، وعاونوهم على استرداد الكنوز الضائعة من الأدب والفن الكلاسيكيين ، وكل هذا على أساس الفهم الضمني بأن كتاباتهم سوف توجه ، فرضاً باللاتينية ، إلى الطبقات المتعلمة ، ولن تهدم العقيدة الكاثوليكية عند الناس .

ووجد علماء الإنسانيات ، وقد أزعجهم وقتذاك هذا الاتفاق الودي المريح ، أن أوروبا التيقونية كانت أقل مبالاة بهم وبثقافتهم الأرستقراطية منها بالحديث الحار عن الروح للوعاظ الجدد الذين يتكلمون باللغة الوطنية ، والذي يدور حول الرب والجحيم والخلاص الفردي . وسخروا من كل المناقشات المتحمسة التي ثارت بين لوثر وإيلك ، وبين لوثر وكارلشتادت ، وبين لوثر وزونجلي ، باعتبارها معارك حول نتائج ، اعتقدوا أنه قضى عليها منذ عهد بعيد ، أو انطوت في غمار النسيان برقة . ولم يستسيغوا اللاهوت وأصبحت السماء والجحيم أساطير بالنسبة إليهم ، وأقل حقيقة من ميثولوجيا اليونان وروما . ورأوا أن البروتستانتية خيانة لعصر النهضة ، وأنها كانت تستعيد كل المذاهب الفوق الطبيعية واللاعقلية والشيطانية التي رانت بالظلام على عقلية القرون الوسطى ، وقد شعروا بأن هذا لم يكن تقدماً ، بل رجعية . . . كان إخضاعاً من جديد للعقل المتحرر لسيطرة الأساطير البدائية للسوق . واستاءوا من طعن لوثر للعقل ومن تمجيده للعقيدة كما كان يعرفها البطارقة أو الحكام من البروتستانت . وماذا بقي للإنسان من

تلك الكرامة التي كان بيكوديلا ميراندولا قد وصفها بمثل هذا النبل ، إذا كان كل شيء حدث على ظهر الأرض - كل بطولة وكل تضحية ، وكل تقدم في أدب السلوك الإنساني يستحق الذكر - مجرد عمل آلي ، قام به أناس عاجزون تافهون ، لتحقيق ما سبق في علم الله ، وتنفيذ أوامره التي لا نعرفها ؟

وليس من شك في أن علماء الإنسانيات الذين افتقدوا الكنيسة ، وإن كانوا لم يتركوها قط - ويمفيلينج وبياتوس رينانوس وتوماس مورنر وسيباستيان برانت - قد سارعوا وقتذاك إلى الإعراب عن ولائهم .

وابتعد عن لوثر كثير من علماء الإنسانيات الذين هللوا لصورة لوثر الأولى باعتبارها إصلاحاً شاملاً لظلم منحجل ، وذلك كلما تشكل اللاهوت والجدل الديني للبروتستانت . وهاهو فيليبالد بيركهايمر وهو هليني وسياسي ، كان قد أيد لوثر علناً ، حتى إنه حرم من غفران الكنيسة في المسودة الأولى للمنشور **Exsurge Domine** راعه عنف كلام لوثر وقطع صلته بالثورة ، وفي عام ١٥٢٩ وبينما كان لا يزال ينتقد الكنيسة كتب يقول : -

« لا أنكر أن كل أعمال لوثر لم تبد عبثاً في مبدأ الأمر ، ما دام لا يوجد رجل صالح يستطيع أن يرضى عن كل تلك الأخطاء والضلالات ، التي تراكت تدريجياً في المسيحية . وعلى هذا فإني كنت أرجو أن وآخرون أن يستخدم دواء ما لمثل هذه الآفات العظيمة ، ولكنني كوفئت بخديعة قاسية ، لأنه قبل استئصال شأفة الأخطاء الآنفة الذكر ، تسلت أخطاء لا تغتفر أشد جسامة ، إذا قورنت بها الأولى ، فإنها تبدو من قبيل عبث الأطفال . . . لقد وصلت الأمور إلى معبر دفع الأفاقين الإنجيليين إلى إظهار زملائهم البابويين ، وهم يرتدون مسوح الفضيلة . . . ولا بد أن لوثر

بلسانه اللاذع ، الذى لا يعرف الخجل ، قد انزلق إلى الخجل أو استلهم الشيطان» (٧٥) .

ووافق موتيانوس على هذا وكان قد حبي لوثر ووصفه بأنه « نجم الصباح فى فيتنبرج » وسرعان ما شكنا من أن لوثر « تعتريه لوثة مجنون » (٧٦) أما كروتوس روبيانوس ، الذى كان قد مهد الطريق للوثر بـ « خطابات من أناس مغمورين » فإنه فر عائداً إلى حظيرة الكنيسة عام ١٥٢١ . وأرسل رويخلين إلى لوثر خطاباً رقيقاً ، ومنع إيك من إحراق كتب لوثر فى أنجولشتادت ، ولكنه ندد بابن أخيه ميلانكتون ، لأنه تبنى اللاهوت اللوثرى ومات بين ذراعى الكنيسة . وأما جوهانس دوينيك كوكلايوس فقد ناصر لوثر فى مبدأ الأمر ، ثم انقلب عليه فى عام ١٥٢٢ ، وبعث له برسالة أنه فيها قائلاً : -

« هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشرهم ؟ نسأل الله النجاة ! إننا لنفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة . . . ولكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « بالوعات » وألفاظ سب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يا لوثر ! إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل » (٧٧) .

ولعل علماء الإنسانيات فى ألمانيا قد نسوا بذاعة أسلافهم الإيطاليين - فيليلفو وبوجيو وكثيرين غيرهما - تلك البذاعة جعلت لوثر يسارع بأن يشرع قلمه المتمرد العنيد . ولكن أسلوب لوثر فى العراق لم يكن إلا سطحاً لآتهمهم . ولاحظوا - كما لاحظ لوثر - فساد الأخلاق والسلوك فى ألمانيا ، وعزوا ذلك إلى تفكك السلطة الكهنوتية وإسقاط اللوثرين « للأعمال الصالحات » ، باعتبارها مبرراً للخلاص . وساءهم انتقاص البروتستانت

للتعليم ومساواة كارلشتادت بين العلامة النحرير وبين والفلاح ، وتهون لوثر من شأن التضلع في العلم والحصافة ، وأعرب أرازموس عن الرأي العام لعلماء الإنسانيات . وهنا سلم ميلانكتون (٧٨) بهذا الرأي في حزن - وهو يذهب إلى أنه حيث تنتصر اللوثرية ينحط شأن الآداب (أى التعليم والأدب) (٧٩) ، ودفع البروتستانت هذه المهمة بقولهم إن هذا يرجع إلى أن التعليم بالنسبة لعالم الإنسانيات يعنى ، أولاً وقبل كل شىء ، دراسة الكلاسيات الوثنية والتاريخ الوثنى . وشغلت الكتب والمجلات في المجادلات الدينية الذهن والمطابع في المانيا وسويسرة مدة جيل بأسره ، حتى فقد كل شكل آخر من أشكال الأدب (غير الهجو) تقريباً جمهوره . ووجدت دور النشر مثل دار فروبن للنشر في بازيل والاطلانسى في فينا عدداً قليلاً من المشترين للمؤلفات العلمية التى أصدرتها وكلفتها غالباً ، حتى أشرفت على الإفلاس (٨٠) وحجب تعصب المنافسين النهضة الألمانية الفتية ، ووصل مسار مسيحية عصر النهضة نحو التوفيق بينها وبين الوثنية إلى نهايته .

وظل بعض علماء الإنسانيات مثل أيوبان هيس وأولريخ فون هوتن مخلصين للإصلاح الدينى ، وانتقل هس من موقع إلى موقع وعاد إلى أرفورت ليجد أن الجامعة قد هجرها روادها . ومات وهو يقرض الشعر في ماربورج (١٥٤٠) وهرب هوتن ، بعد سقوط سيكنجن ، إلى سويسرة ، ولجأ إلى السرقة للحصول على طعامه ، وهو فى الطريق (٨١) ، وبحث عن أرازموس فى بازيل (١٥٢٢) ، وهو يعانى من المرض والحصاصة ، على الرغم من أنه كان قد دمع علناً عالم الإنسانيات بأنه جبان ، لأنه لم ينضم إلى المصلحين الدينيين (٨٢) . ورفض أرازموس أن يراه وزعم أن موقده لا يصلح لتدفئة عظام هوتن . ونظم الشاعر الآن قصيدة بعنوان « تحذير » ندد فيها بأرازموس ووصفه بأنه زنديق مارق ، يفرق كفرخ الدجاج ، ووعد بأن يمسك عن نشرها إذا دفع له أرازموس ، ولكن أرازموس خيب ظنه ، وحث هوتن على التزام بجانب الحكمة وتسوية خلافاتهما سلمياً ،

غير أن هوتن كان قد سمح بتداول النسخة الخطية لقصيدته الهجائية بين الخاصة ، ووصل ذلك إلى علم أرازاموس ودفعه هذا إلى الانضمام إلى رجال الدين في بازيل في طلبهم بإلحاح من مجلس المدينة لإقصاء الهجاء الخائن ، وبعث هوتن بقصيدته « تحذير » إلى المطبعة وانتقل إلى مولهاوس . وهناك تجمع حشد من الغوغاء ، وهاجم البيت الذي لاذ به ، ففر مرة أخرى ، وقبض عليه زونجلي في زيورخ (يونية ١٥٣٣) ، وقال المصلح الديني وهو هنا كريم خير أكثر من عالم الإنسانيات « انظروا . . . إلى هذا المخرب ، انظروا إلى هوتن الرهيب ، الذي نراه مغرماً جداً بالناس وبالأطفال ، إن هذا الفم الذي تهب منه أعاصير على البابا لا ينفث غير الرقة والطيبة » (٨٣) . وفي غضون ذلك رد أرازاموس على « تحذير » في رسالة كتبها على عجل وعنوانها **Spongia Erasmi adversus aspergines Hutteni** ، (أي إسفنجة أرازاموس على مطاعن هوتن) وكتب إلى مجلس المدينة في زيورخ محتجاً على « أكاذيب » هوتن التي تحدث بها عنه وأوصى بنفي الشاعر (٨٤) . ولكن هوتن كان يحتضر وقتذاك ، فقد أنهكته محارب الأفكار وأتلف الزهري صحته وأطلق زفرته الأخيرة (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٣) فوق جزيرة في بحيرة زيورخ ، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين عاماً ، وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ملايسه وقلمه .

٤ - أرازاموس - حاشية على آرائه

(١٥١٧ - ٣٦)

إن رد الفعل عند أرازاموس بالنسبة إلى الإصلاح الديني يثير مناقشة حامية بين المؤرخين والفلاسفة . ترى أية طريقة خير للبشرية - هجوم لوثر المباشر على الكنيسة أم سياسة أرازاموس التي تعتمد على المصالحة السلمية والإصلاح الديني على درجات ؟ إن الإجابات تكاد تحدد نمطين من الشخصية : هما المحاربون « ذوو العقول الجامدة » الذين يعتصمون بالعمل والإرادة ، « والمهادنون ذوو العقول المرنة في الفكر والشعور » . لقد كان لوثر رجل عمل أساساً . وكانت أفكاره قرارات وكتبه أفعالاً . وكان تفكيره في

مضمونه لا يختلف عن تفكير رجال القرون الوسطى الأولى ، و لكنه في
في النتيجة يشبه تفكير المحدثين الأوائل ، ولقد عاونت شجاعته وحسمه
للأمور القومية أكثر من لاهوته على تأصيل العصر الحديث . وكان لوثر
يتحدث بلهجة ألمانية قوية ، تنبض بالرجولة إلى الشعب الألماني ، فأثار
أمة ، ودفعها إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب
بلغة لاتينية رشيقة رقيقة بلحمهور دولي ، إلى صفوف عالمية من خريجي
الجامعات . وكان شديد الحساسية لا يصلح لأن يكون رجل عمل ، يمتدح
السلم ويتوق إليه ، بينما كان لوثر يشهر الحرب ويجد فيها متعة . كان إماماً
في الاعتدال ، يستهجن التطرف والمغلاة وهرب من ميدان العمل
إلى ميدان الفكر ، ومن اليقين المتسم بالتهور إلى الشك المنطوي على الحذر ،
وعرف الكثير ليرى أن الحق أو الخطأ ايضاً جميعاً في جانب واحد ، ورأى
الجانبين كليهما ، وحاول أن يوفق بينهما فسحق في وسطهما .

وصفق لمقالات لوثر ، وأرسل في مارس عام ١٥١٨ نسخاً منها إلى
كوليه ومور ، وكتب إلى كوليه يقول : « إن المحكمة الرومانية قد كشفت
عن وجهها برقع الحياء . أى شيء يفوق في القمحة صكوك الغفران هذه ؟ » (٨٥)
وكتب في أكتوبر إلى صديق آخر يقول :

« سمعت أن لوثر يتفق معه في الرأي كل الناس الصالحين ، وإن قيل
إن كتاباته ليست كلها في مستوى واحد . وأعتقد أن هذه المقالات سوف
يرضى عنها الجميع ، اللهم إلا قلة ضئيلة لا تتفق معه في رأيه حول المطهر ،
الذى يعتمدون عليه في كسب عيشتهم ، ولا يريدون أن ينتزع من أيديهم . . .
وأنا أدرك أن الحكومة الملكية للكهنة الأعظم الروماني (وهذا حال تلك
الحكومة البابوية الآن) هي وباء يحتاج العالم المسيحي ، على الرغم من أن
وعاظاً يفتقرون إلى الحياء يمتدحونها في كل الظروف ، ومع ذلك فإنني
لا أكاد أعرف هل من اللائق أن أمس هذا القرع المكشوف ، لأن هذا

فرض واجب على الأمراء ، ولكنى أخشى أن يتآمروا مع الخبر الأعظم
للحصول على قدر من الغنائم» (٨٦) .

وعاش أرازموس الجانب الأكبر من حياته وقتذاك في لوفان ، وأسهم
في تأسيس Collegium Trilingue في الجامعة ، بكراسى أستاذية في
اللاتينية واليونانية والعبرية ، وفي عام ١٥١٩ منحه شارل الخامس معاشاً ،
فاشترط أرازموس لقبوله أن يحتفظ باستقلاله جسدياً وعقلاً ، ولكنه إذا
كان بشراً ، فإن هذا المعاش ، مضافاً إليه ما كان يتلقاه من كبير أساقفة
وارهام ولورد ماونتجوى ، قد قام بدور ما في صياغة موقفه نحو الإصلاح
الدينى .

وفي الوقت الذى تجاوزت فيه ثورة لوثر مرحلة نقد بيع صكوك
الغفران إلى رفض الاعتراف بالبابوية والمجالس الدينية ، تردد أرازموس ،
فقد كان يأمل أن تتقدم عجلة إصلاح الكنيسة بالالتجاء إلى الإرادة الواعية
للبابا ذى النزعة الإنسانية . كان لا يزال يحل الكنيسة باعتبارها (خيل إليه
هذا) مؤسسة للنظام الاجتماعى والأخلاق الفردية لا بديل عنها ، وعلى الرغم
من اعتقاده أن لاهوت المحافظين قضى عليه ما تخلله من لغو ، فإنه كان
لا يثق بحكمة الإفتاء الفردى أو الشعبى لتطوير شعيرة أو عقيدة أكثر نفعاً ،
ذلك أن رجاحة العقل لا تنأى إلا عن طريق تقطر الاستنارة العقلية ، من
الفئة القليلة المتفهمة ، إلى الكثرة الغالبة . وأقر بأنه كان له دور فى تمهيد
الطريق أمام لوثر ، فقد كانت رسالته « الشاء على الطيش » ، التى كان
يتداولها وقتذاك الآلاف من القراء فى أرجاء أوروبا ، تسخر من الرهبان
والمشغلين باللاهوت ، وتشدد من لدع خطابات لوثر المقذعة الجافية ،
وعند ما اتهمه الرهبان المشغولون باللاهوت بأنه وضع البيضة التى فقسست
تحت لوثر ، رد عليهم فى تأفف : « نعم ولكن البيضة التى وضعتها خرجت
منها دجاجة ، أما البيضة التى فقسها لوثر فقد خرج منها ديك من ديوك

المصارعة» (٨٧). ولقد قرأ لوثر نفسه رسالة « الثناء على الطيش » كما قرأ تقريباً غيرها من كل ما نشره أرازموس ، وقال لأصدقائه إنه إنما يقوم بصياغة مباشرة لما قاله عالم الإسانيات الشهير ، أو ما ألمح إليه منذ سنوات عديدة مضت ، وكتب في ١٨ مارس عام ١٥١٩ إلى أرازموس في تواضع واحترام ينشد صداقته وعونه ضمناً .

وكان على أرازموس وقتذاك أن يتخذ قراراً حاسماً في حياته . وكان في مأزق بين أمرين أحلاهما مر . إذا تخلى عن لوثر فسوف يوسم بالجن ، وإذا اشترك مع لوثر في عدم الاعتراف بالكنيسة الرومانية فإنه لن يخسر فحسب ثلاثة مراتب ، ويفقد ما أسبغه عليه ليو العاشر من حماية ضد المشتغلين باللاهوت ، الذين يعملون للحيلولة دون نشر العلم ، وسيجده نفسه مضطراً إلى التخلي عن خطته واستراتيجيته بشأن إصلاح الكنيسة عن طريق تحسين العقول والأخلاقيات في الرجال ذوي النفوذ . وكان قد أحرز (كما اعتقد) تقدماً حقيقياً في هذا المجال مع البابا ورئيس الأساقفة وارهام والأسقف فيشر ونائب الأسقف كوليو وتوماس مور وفرانسيس الأول وشارل الخامس ، ولم يرض هؤلاء الرجال بالتأكيد أن يتخلوا عن الكنيسة . حقاً إنهم كانوا على استعداد لأن يحجموا عن تقويض نظام كان في نظرهم مرتبطاً بطريقة مبهمة مع حكومة الأمراء في المحافظة على الاستقرار الاجتماعي ، ولكن يمكن تجنيدهم في حملة لتخفيف الخزعبلات والأهوان في عقيدة راجحة الكفة ، وفي تطهير رجال الدين وتعليمهم ، وفي السيطرة على الرهبان وإخضاعهم للتبعية ، وفي حماية حرية الفكر من أجل تقدم العمل .

إن تغيير ذلك البرنامج بانقسام العالم المسيحي انقساماً شديداً إلى شطرين متحاربين ، وبلاهوت ، يأخذ بالقدرية وبعدم أهمية الأعمال الصالحات ، سوف يبدو في نظر هؤلاء الرجال ، بل وبدلاً لأرازموس ، الطريق إلى

الحنون . وكان براوده الأمل في استعادة السلام إذا خفضت كل الأطراف أصواتها ، وأشار في فبراير عام ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات المتهمة (٨٨) ، وكتب في أبريل إلى الأمير المختار فريدريك ، بحثه على حماية لوثر باعتباره رجلاً ارتكب الناس في حقه من الإثم أكثر مما ارتكب هو من آثام (٨٩) . وأخيراً (٣٠ مايو) رد على لوثر ، وقال :

« يا أعز أخ لي في المسيح . إن رسالتك إلى تظهر حدة ذهنك وتبصر بروح مسيحية قد أسعدتني أكثر من كل شيء . أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذي تحدثه كتبك هنا . إن هؤلاء الناس لا يمكن ، بأي وسيلة ، ألا يراودهم الشك في أني عاونتك في كتابة مؤلفاتك وأني ، كما يصفونني ، حامل لواء حزبك . . . ولقد أقسمت لهم أني لا أعرفك بتاتاً ، وأنني لم أقرأ كتبك ، وأنني لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرأوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ومن رأي أيضاً أن الموضوعات التي كتبت عنها ليست من النوع الذي يصلح للخطابة من فوق المنابر ، وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذليل ، فلا محل للتنديد بك أو صب اللعنات عليك . وكان هذا بلا جدوى فقد ظلوا يتمزون غضباً . . . وأنا نفسي الهدف الرئيسي للعداء والكراهية ، وأما الأساقفة فإنهم في صني بوجه عام . . .

وأما أنت فإن لك أصدقاء أوفياء في إنجلترا ، حتى بين أكبر الشخصيات هناك . ولك أصدقاء هنا أيضاً . . . أنا بصفة خاصة . وأما بالنسبة لي فإنني اشغل نفسي بالأدب ، وأنا أقصر عليه جهودى بقدر الإمكان ، وأتخاثنى الخلافات الأخرى ، ولكني بصفة عامة أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف . . . ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين سيئون استخدام سلطة البابا بدلاً من أن تحصى أخطاء البابا نفسه . وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء . والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من

جلورها في لحظة . والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر مما تفعل الإدانة الجماعية .
تجنب كل مظهر من مظاهر الشغب . واحتفظ ببرود أعصابك ولا تستسلم
للغضب . لا تذكره أحداً . لا تفرح بالضجة التي أثيرتها . لقد اطلعت على
كتابك « تعليق على المزامير » وسررت به كثيراً . . . ألا فليهبك المسيح
روحاً من عنده من أجل مجده ومن أجل خير العالم (٩٠) .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط في المواجهة بين الضدين ، فإن المشتغلين
باللاهوت في لوفان استمروا في مهاجمة أرازموس ، باعتباره منبع الفيضان
اللوثري . ووصل الياندر في الثامن من أكتوبر عام ١٥٢٠ ، وعلق النشرة
البابوية التي تنص على حرمان لوثر من غفران الكنيسة ، وسجل أن أرازموس يعد
محرضاً سرياً على الثورة . وقبل العلماء النحاري زعامة الياندر وأقصوا أرازموس
من كلية لوفان (٩ أكتوبر عام ١٥٢٠) ، فانتقل إلى كولون وهناك ،
كما رأينا ، دافع عن لوثر في مداولة مع فردريك صاحب ساكسونيا
(٥ نوفمبر) ، وفي الخامس من ديسمبر أرسل إلى الأمير المختار بياناً عرف
باسم **Axiomata Erasmi** جاء فيه إن التماس لوثر أن يحاكم أمام قضاة
لا يعرفون التحيز طلب معقول ، وأن الصالحين من الناس والمحبين للإنجيل
هم هؤلاء الذين كانت إساءتهم للوثر أقل من غيرهم ، وأن الناس يتعطشون
إلى معرفة الحقيقة الإنجيلية ، (أي الحقيقة التي تعتمد على الإنجيل فحسب)
وأنه لا يمكن قمع (٩١) مثل هذا المزاج الذي انتشر انتشاراً واسعاً . ودبج بمعاونة
جوهان فابر الدومينيكانى عريضة إلى شارل الخامس ، طالباً فيها أن يقوم
شارل وهنرى الثامن ولويس الثاني ملك هنغاريا بتعيين محكمة محايدة للفصل
في قضية لوثر . وحث في رسالة بعث بها إلى الكاردينال كامبيجيو (٦
ديسمبر) على توفير العدالة للوثر ، وقال : « لقد أدركت أنه كلما كان
الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر . . . إن بضعة أشخاص فقط كانوا
يصخبون في وجهه ، خوفاً من أن يجردهم مما في جيوبهم . . . ولم يرد عليه
أحد بعد أو يعدد أخطائه . . . فكيف يحدث هذا في الوقت الذي يوجد

فكيف يحدث هذا في الوقت الذي يوجد فيه أشخاص يزعمون أنهم أساقفة ...
وأخلاقهم كريمة .. وهل من الصواب أن تضطهد رجلا مثل هذا ، لا تشوب
أخلاقه شائبة ، وليس في حياته ما يشينه ، ووجد أشخاص من الصفوة
في كتاباته الكثير مما يستحق الإعجاب ؟ لقد كان الهدف ببساطة القضاء
عليه وعلى كتبه ، ليضيع في غمرات النسيان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا
ثبت أنه على خطأ . . . إذا كنا ننشد الحقيقة ، فان كل امرئ يجب أن يكون
حرّاً في أن يقول ما يراه دون خوف أو وجل . وإذا كوفي المدافعون عن
وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رؤوسهم ، وجوزى
المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشتى أو بوضعهم فوق الخوازيق فإن
الحقيقة لن تسمع أبداً . . . ولا يمكن أن يكون هناك شيء يبعث على النفور
ويبعد عن الحكمة أكثر من نشره البابا . . . إنها تخالف طبيعة البابا ليو
العاشر ، وأرى أن الذين أرسلوا لنشرها فحسب قد جعلوا الأمور تنقلب
إلى أسوأ . ومهما يكن من شيء فإنه من الخطر أن يعارض الأمراء الزمانيون
البابوية ، وأنا لست على استعداد لأن أكون أكثر شجاعة من الأمراء ،
وبخاصة عندما لا أستطيع أن أفعل شيئاً . ولعل فساد الحاشية الرومانية يجعلها
في حاجة إلى إصلاح شامل وعاجل ، ولكني أنا وأمثالي لا يطلب منا اتخاذ
إجراء مثل هذا على عاتقهم ، وأنا أرى أن تبقى الأمور على ما هي عليه ،
وأفضل أن أرى الأشياء على ما هي عليه على نشوب ثورة ، قد تؤدي إلى
نتيجة لا تحمد عقباها . . . ويمكنك أن تطمئن إلى أن أرازموس كان ،
وسوف يظل دائماً ، من الرعايا المخلصين لكروسي البابوية الروماني ، وإن
كنت أعتقد ، ويعتقد كثيرون مثلي ، أنه ستتاح فرصة أحسن لتسوية ما
إذا قل الالتجاء إلى العنف ، وإذا وضعت مقاليد الإدارة في أيدي رجال
لهم وزن وعلى حظ من التعليم ، وإذا تصرف البابا بوحى من ضميره ،
ولم يتأثر بأراء الآخرين» (٩٢) .

وقد جعل لوثر من الصعب على أرازموس أن يتشفع له لأن لهجة خطبه كانت تزداد عنفاً كل شهر ، إلى أن دعا في يوليو عام ١٥٢٠ قراءة إلى أن يغسلوا أيديهم في دماء الأساقفة والكرادلة ، وعند ما وصل نبأ إحراق لوثر علناً لمنشور البابا الذي يقضى بحرمانه من غفران الكنيسة ، أقر أرازموس بأنه صدم لهذا النبأ . وفي الخامس عشر من يناير عام ١٥٢١ بعث إليه البابا برسالة أعرب فيها عن سروره بولائه ، وفي الوقت نفسه أرسل ليو تعليماته إلى الياندر بمعاملة عالم الإنسانيات بكل لطف . وعند ما اقتربت موعد انعقاد المجلس النيابي في ورمس ، طلب أمير ألماني من أرازموس أن يخف لمعاونة لوثر ، ولكنه رد بأن الأوان قد فات . وأسف لرفض لوثر الامتثال ، إذ كان يعتقد أن هذا الامتثال سوف يؤدي إلى الإسراع بحركة الإصلاح الديني ، أما الآن فإنه يخشى قيام حرب أهلية . وفي فبراير عام ١٥٢١ كتب إلى أحد أصدقائه : « إن كل إنسان أقر بأن الكنيسة قد عانت من نير طغيان بعض الناس ، وكثيرون كانوا يسألون النصيحة لعلاج هذه الحالة الراهنة . والآن وقد هب هذا الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو . . . لم يجروا أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبير عنه . وقد حذرته منذ ست شهور نخلت أن يحترس من الكراهية . ولقد نفرت رسالته « الأسر البابيلوني » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة (٩٣) .

وقد تخلى لوثر وقتذاك عن كل أمل في مساندة أرازموس ، وأسقطه من حسابه باعتباره داعية للسلام جباناً « يعتقد أن كل شيء يمكن أن يتم بالتهذيب والعطف » (٩٤) . وفي الوقت نفسه ، وعلى الرغم من تعليمات ليو ، استمر الياندر وعلماء اللاهوت في لوفان في مهاجمة أرازموس ، باعتباره نصيراً سرياً للوثر . فاستاء من ذلك وانتقل إلى بازيل (١٥ نوفمبر عام ١٥٢١) ، حيث راوده الأمل في أن يتناسى الإصلاح الديني الفتي في عمار النهضة العجوز . وكانت بازيل معقل مذهب الإنسيانيات في سويسرة ،

فهناك كان يعمل بياتوس رينانوس الذى نشر تاسيتوس وبليني الأصغر ،
واكتشف فيليوس بايتركولوس ، وأشرف على طباعة العهد الجديد ، الذى
أعدده أرازموس ، وهناك كان طباعون وناشرون يعدون أيضاً من العلماء
مثل هانز أمرباخ ، وذلك القديس بين الناشرين الذى يدعى جوهان فروين
(يوس) ، وهو الذى أضنى نفسه مكباً على مطابعه ونصوصه و (قال
عنه أرازموس) «ترك لأسرته من الشرف أكثر مما ترك لها من الثروة» (٩٥)
وهناك عاش ديرر أعواماً طويلاً ، وهناك قام هولبين برسم صورة الشخصية
التي تخب الألباب لفروين وبونيفاسيوس أمرباخ - الذى جمع المقتنيات
الفنية الموجودة الآن في متحف بازيل . وقبل سبع سنوات ، وفي زيارة
سابقة ، كان أرازموس قد وصف هذا المحيط في شيء من المبالغة التي
تنطوى على الحب .

« يبدو لي أني أعيش في هيكل قدسى ساحر لربات الفنون ، يظهر فيه
حشد من الأشخاص المتعلمين كأمر محتوم . ليس هناك من يجهل اللاتينية ،
ولا أحد يجهل اليونانية ، ومعظمهم يعرفون العبرية . هذا يفوق
زملاءه في دراسة التاريخ ، وذاك متضلع في اللاهوت ، وأحدهم بارع في
في الرياضيات وآخر دارس للآثار وثالث ضليع في القانون . وليس من شك
في أن الحظ لم يسعدني ، حتى ذلك الوقت ، في أن أعيش في مثل هذا
المجتمع الكامل . . . أية صداقة خالصة ترفرف عليهم جميعاً وأي بشر
وأي توافق» (٩٦)

وعاش أرازموس مع فروين وعمل معه مستشاراً أدبياً ، وكتب مقدمات
وحرر جريدة «الآباء» . ورسم هولبين صوراً شخصية مشهورة له في بازيل
(١٥٢٣ - ١٥٢٤) ولاتزال إحداها هناك ، وأرسلت أخرى إلى كبير
أساقفة وارهام ، وهي الآن من مقتنيات إيرل أف رادنور ، والثالثة في
متحف اللوفر ، وهي من روائع هولبين . ويرى فيها جالساً إلى منضدة ،

وهو يكتب ملتفاً بنعطف ثقيل حوافه مزينة بالفراء ، ويضع على رأسه قلنسوة تغطي نصف أذنيه ، وها هو أعظم علماء الإسانيات تشي كهولته التي جاءت قبل الأوان ، (كان وقتئذ في السابعة والخمسين من عمره) بالثمن الغالي الذي دفعه بسبب اعتلال صحته . حياة فيلسوف مشائى حافلة بالجدل والخصام ، والعزلة الروحية والحزن ، اللذين ترتبا على رغبته في أن يكون عادلا مع الطرفين في الخلافات المذهبية التي حدثت في عصره . وتبرز من القلنسوة شعرات بيضاء مشعثة . وله شفتان رقيقتان كالحتان ، وتقاطع جميلة ، وإن كانت قوية ، وأنف حاد معقوف ، وجفون ثقيلة ، تكاد تغلق عينين متعبتين ، هنا في لوحة من أعظم الصور الشخصية ترى النهضة وقد مزقتها الإصلاح الدينى إرباً .

وفي أول ديسمبر عام ١٥٢٢ كتب البابا الجديد أدريان السابع إلى أرازموس بألفاظ توحى بسلطانه غير العادى على كلا الطرفين : يتوقف عليك ، وأسأل الله أن يعينك ، أن تهدي من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين . . . ولست في حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبطينى عند ما أتلقى ثانية هؤلاء الهراطقة دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى . وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق الفظة مع طبيعتى . أنا لا أزال كعهديك بي عند ما كنا ندرس معاً . تعال إلى في روما ، وسوف تجد هنا ما تنشده من الكتب ، وسوف تجدنى أنا وآخرين من الرجال المستنيرين ، لتبادل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبه منك فإنك لن تندم أبداً » (٩٧) .

وبعد تبادل تمهيدى لخطابات تعهد فيها كل منهما للآخر بالحفاظ على السرية ، فتح أرازموس قلبه للبابا وقال : « إن قداستك تطالب منى النصيحة ، وترغب في أن ترانى . وكم كان يسعدنى أن أذهب إليك لو سمحت بذلك صحتى . أما بالنسبة للكتابة ضد لوثر ، فأنا لست على درجة كافية من العلم ، وأنت تعتقد أن اكلماتى سلطانياً ، ولاكنى للأسف أرى

أن شعبيتي ، التي اكتسبتها فيما مضى قد استحالت إلى كراهية . لقد كنت يوماً أميراً للبيان ، ونجماً من نجوم ألمانيا . . . وكاهناً أعظم للعلم ومنافحاً عن لاهوت أكثر نقاء . أما الآن فقد تبدل الوضع ، ففريق يقول أنني أتفق في الرأي مع لوثر ، لأنني لا أعارضه ، وفريق آخر يرى أنني على خطأ لأنني أعارضه . . . وفي روما وفي برابانت يصفونني بأني هرطيق ، وزعيم شعبة من الهرطقة ، وداعية إلى الانشقاق ، والحق أنني لا أتفق بتاتاً مع لوثر . وأنهم ليستشهدون بهذه الفقرة أو تلك ، ليبينوا أننا متشابهان ، ومع ذلك ففي وسعي أن أجد مائة فقرة يبدو فيها أن القديس بولس يعلم العقائد التي يستنكرها عند لوثر . وخير من يحضلك النصيح هم الذين يشيرون باتخاذ إجراءات خفيفة . والرهبان - يطلقون على أنفسهم العمالقة الذين يسندون كنيسة تهتز وتوشك أن تنقض - ينفرون من يمكن أن يكونوا أنصاراً لها . . . ويعتقد البعض أنه لا علاج لهذه الحالة إلا القوة . وأنا أرى غير هذا . . . فسوف تؤدي إلى سفك مروع للدماء . إن المسألة ليست الجزاء الذي تستحقه الهرطقة ، ولكنها الطريقة الحكيمة التي تعالج بها . . . وأنا من جهتي أرى اكتشاف جنود المرض واقتلاع ما يجب البدء به منها . لا تعاقب أحداً . وأعتبر ما حدث عقوبة أنزلتها العناية الإلهية ، وامنح عفواً عاماً . وإذا كان الله يغفر لي خطاياي ، فإن كاهن الرب يمكن أن يغفرها ، وفي وسع الحكام أن يمنعوا قيام ثورة مسلحة ، وإذا أمكن يجب مراجعة المواد المطبوعة . ثم دع العالم يعرف ويرى أنك تنوى جاداً رفع المظالم ، التي يشكو منها الناس بحق . وإذا أردت قداستك أن تعرف ما هي الجنود التي أشير إليها ، فأرسل أشخاصاً تثق بهم إلى كل جزء من أجزاء العالم المسيحي اللاتيني ، ودعهم يتبادلون الرأي مع أعقل من يجدون من الرجال في مختلف البلاد وسرعان ما تعرف بعد ذلك (٩٨) .

يا لأدريان المسكين الذي تجاوزت نياته الطيبة حدود قواه ! لقد مات

كسير الفؤاد عام ١٥٢٣ . واستمر خلفه كليمنت السابع في حث أرازموس على الانخراط في سلك المناهضين للوثر . وعند ما خضع العالم أخيراً ، لم يكن هجومه على لوثر بصفة شخصية ، ولم يكن لديه اتهام عام للإصلاح الديني ولكنه ناقشه مناقشة موضوعية مهذبة بإرادة حرة (De Libro arbitrio) - (١٥٢٤) . وسلم بأنه لم يستطيع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شيء وقدرته على كل شيء . ولكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد ، التي تقول بحتمية القدر ومذهب الجبر ، دون توضيح بكرامة الإنسان أو الحياة البشرية وقيمتها : هنا فارق أساسي بين الإصلاح الديني والنهضة . وبدا واضحاً لأرازموس أن الإله الذي يعاقب على الخطايا ، التي ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم في الامتناع عنها ، وحش لا خلاق له لا يستحق العبادة أو الثناء ، وثسبة مثل هذا السلوك إلى « الأب الذي في السماء » كفر فظيع . ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه المنتقم الجبار بالعذاب في نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أي مؤمن بحتمية القدر أن يقدم أي مجهود خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟ وأقر أرازموس بأن اختيار الإنسان رهن بآلاف الظروف ، التي لا يستطيع أن يتحكم فيها ، ومع ذلك فإن شعور الإنسان يصر على أن يؤكد أن له بعض الحرية ، وبدونها يكون آلة ذاتية الحركة لا معنى لها . وانتهى أرازموس إلى القول : على أية حال دعونا نسلم بجهلنا وبعجزنا في التوفيق بين حرية الإنسان في التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين سابق علم الله أو سبب وجوده في كل مكان . دعونا نؤجل الحل إلى يوم القيامة ، ولكن في الوقت نفسه دعونا ننجب كل فرض يجعل من الإنسان مجرد دمية ، ومن الرب طاغية أنسى من أي طاغية عرف في التاريخ .

وأرسل كليمنت السابع ماتي فلورين (٥,٠٠٠ ؟ دولار) إلى أرازموس ،

عند ما تسلم منه الرسالة ، وشعر معظم الكشالكة بنحية الأمل بسبب اللهجة الفلسفية ، التي تنشده المصالحة ، والتي تنطوي عبارات الكتاب عليها ، فقد كانوا يأملون أن يسمعوها خبر إعلان حرب يطربون لها . والحق أن ميلانتيكون الذي أعرب عن وجهة نظره في الجبرية بكتاب **Loci Communes** تأثر كثيراً بالرأى الذي أبداه أرازموس ، وحذف نظريته في هذا الموضوع ، وذلك في الطبقات التي ظهرت فيما بعد (٩٩) . وكان هو أيضاً لا يزال يراوده الأمل في السلام - ولكن لوثر دافع عن الجبرية بلا هوادة في رد متأخر عنوانه **De Servo arbitro** عام ١٥٢٥ ، وقال :

« إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطأها الرب رغبت ، وانطلقت كما يشاء الرب ، وإذا امتطأها الشيطان رغبت ، وانطلقت كما يهوى الشيطان . وهي لا تستطيع أن تختار رايها . . . والركاب يتنازعون على امتلاكها . . . والرب يعلم الغيب ، ويقدر ويعمل كل شيء ، بإرادة فعالة أزلية ، لا تتبدل ، وبهذه الإرادة القاهرة تغوص الإرادة الحرة ، وتتفتت في التراب (١٠٠) » .

ومن الأمور ذات المغزى عن المزاج السائد في القرن السادس عشر ، أن لوثر رفض التسليم بحرية الإرادة ، لا لأنها تتعارض مع حكم قانون عالمي وعلمية عالمية ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفكرين في القرن الثامن عشر ، ولا لأنه يبدو أن الوراثة والبيئة والظرف تحدد ، كالثوب آخر ، الرغبات التي يبدو أنها تحدد الإرادة ، كما ذهب إلى ذلك كثيرون في القرن التاسع عشر ، بل إنه رفض التسليم بالإرادة الحرة على أساس أن قدرة الله على كل شيء ، تجعله تعالى السبب الحقيقي لكل الحوادث وكل الأفعال ، وبالتالي فإنه تعالى ، وليست فضائلنا أو خطايانا ، هو الذي يحكم علينا بالخلاص أو العذاب الأبدي : ويواجه لوثر مرارة منطقته برجولة فيقول : « لقد أسىء إلى حسن الإدراك والعقل الفطري ، إلى حد كبير ، بالقول بأن الله يتخلى عن عبده ويقسو عليه ويعذبه بمحض إرادته تعالى ، كما لو كانت

الخطيئة تسره ، والعذاب الأبدي يسعده ، وهو الذى يقال إنه رؤوف رحيم . ومثل هذا المفهوم عن الله يبدو خبيثاً قاسياً لا يغتفر ، ومن أجله ثار عدد من الرجال فى جميع العصور ، وأنا نفسى أسىء إلى مرة إساءة ، أردتني فى هوة اليأس ، إلى حد أنى تمنيت لو أنى لم أنخلق قط . ولا جدوى من محاولة الهروب من هذا بإيجاد فوارق بارعة ، ومهما أحس العقل الفطرى بما لحقه من إساءة فلا مفر من تسليمه بنتائج علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء وإذا كان من الصعب الإيمان برسه الله ورأفته ، عند ما يعذب من لا يستحقون العذاب ، فإننا يجب أن نتذكر أن عدالة الله لا تكون إلهية إذا أحاط بها عقل الإنسان» (١٠١) .

ومما امتاز به هذا العصر الرواج الذى حظيت به الرسالة التى عنوانها : «الإرادة المستعبدة» فقد بيع منها عدد كبير فى سبع طبعات باللغة اللاتينية وطبعتين باللغة الوطنية ، واشتد الإقبال عليها فى خلال سنة واحدة . وأثبت ذلك أنها أعظم مصدر للاهوت البروتستانتي ، وهكذا وجد كالفن عقيدة الجبر والاختيار والرفض **reprobation** ، التى نقلها إلى فرنسا وهولنده وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا . ورد أرازاموس على لوثر فى مقالين نشرهما فى كراستين دينيتين بعنوان **Hyperaspistes** (المدافع) ١ و ٢ (١٥٢٦ - ١٥٢٧) ، ولكن رأى العصر كان فى جانب الرأى الذى انتهى إليه المصلح فى المناظرة . واستمر أرازهوس ، حتى فى هذه المرحلة ، يبذل جهوده فى سبيل السلام . وأوصى كل من بعث إليهم برسائل بالتسامح واللطف فى المعاملة ولقد ظن أن الكنيسة عليها أن تسمح لرجال الدين بالزواج وتناول القربان المقدس بالأسلوبين المعروفين ، وأنها يجب أن تتنازل عن بعض أملاكها الواسعة للسلطات الزمنية ، لكى تستخدمها فى مرافقها ، وأن أمثال المسائل الحاسمة كالجبر والاختيار وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، يجب أن تترك دون تجديد ومفتوحة

لمختلف التفسيرات (١٠٢) . وأشار على اللوق جورج صاحب ساكسونيا بمعاملة اللامعمدانيين بالرفق ، وقال : « ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ما لم يكن مقترناً بشغب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بالإعدام » (١٠٣) . وحدث هذا في عام ١٥٢٤ ، ومهما يكن من أمر فإنه دافع عام ١٥٣٣ عن سجن الهرطقة ، الذى دعا إليه توماس مور (١٠٤) ، متأثراً بالصدقة أو الشيخوخة ، أما فى أسبانيا حيث أصبح بعض علماء الإنسانيات من مؤيدى أرازموس فقد بدأ رهبان محكمة التفتيش يفحصون أقوال أرازموس فحسباً منسقاً مستهدفين إدانته باعتباره هرطيقاً (١٥٢٧) . ومع ذلك فإنه استمر فى نقده لفجور الرهبان والجمود اللاهوتى ، باعتبارهما الحافزين الرئيسيين إلى الإصلاح الدينى . وكرر عام ١٥٢٨ الاتهام بأن كثيراً من الأديرة ، التى تضم الرهبان والراهبات ، « بيوت عامة للدعارة » وأن « آخر ما يوجد من فضائل فى أديرة كثيرة إنما هى فضيلة العفة » (١٠٥) . وأدان فى عام ١٥٣٢ الرهبان ، باعتبارهم متسولين يسألون فى إلحاح ، ومضلين يغوون النساء ، وصيادين ينطلقون فى إثر الهرطقة ، ومتصيدين للتركات ومزيفين للشهادات (١٠٦) . وكان يؤيد كل شىء لإصلاح الكنيسة بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى . ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلي عن الكنيسة ، أو أن يراها مشطورة إلى نصفين ، وقال : « لى أتحمّل الكنيسة إلى اليوم الذى أرى فيه كنيسة أفضل » (١٠٧) .

وارتاع عنه ما سمع بزناً نهب روما على يد فرق بروتستانتية وكاثوليكية تعمل فى خدمة الإمبراطور (١٥٢٧) . وكان قد راوده الأمل فى أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، ولكن البابا والإمبراطور كانا وقتذاك يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وأصيب بصدمة أكبر عند ما دمر المصلحون الدينيون ، فى ثورة ، التماثيل فى الكنائس (١٥٢٩) ، مع أنه كان قبل ذلك بعام واحد فقط قد ندد بعبادة التماثيل

وقال : « يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست إلا رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق ، وأن توجه الصلاة للمسيح وحده . ولكن ليكن رائدنا الاعتدال في جميع الأمور » (١٠٨) . وهذا بالضبط موقف لوثر من الموضوع نفسه . ولكنه رأى أن التجريد الأهوج الغبي للكنائس من التماثيل رجعية همجية ، تتسم بضيق الأفق . وغادر بازيل ، وانتقل منها إلى فرايبورج - الواقعة على نهر برايسجاو ، في أرض نمسوية كاثوليكية فاستقبلته سلطات المدينة بالترحيب والتكريم ، ومنحته قصر ماكسميليان الأول الذي لم يتم ، ليقيم فيه . وعند ما لم يصله المرتب ، الذي خصصه له الإمبراطور بانتظام أرسل إليه آل فوجر كل ما احتاج إليه من أموال ، بيد أن رهبان فرايبورج وعلماء اللاهوت فيها هاجموه باعتباره من معتنقي مذهب الشك في الخفاء ، والسبب الحقيقي لما حدث في ألمانيا من فتنه .

وعاد إلى بازيل عام ١٥٣٥ فخرج إليه وفد من أساتذة الجامعة مرحبين بعودته ، وخصص له جيروم فروبن ابن جوهان غرافاً في منزله .

وكان وقتذاك قد بلغ التاسعة والستين ، بوجه هزيل تغضن بفعل السنين وكان يعاني من القروح والإسهال وداء النقرس والحصوة ونزلات البرد المتكررة . . . لاحظ الديدن المتورمتين في رسم ديرر . وحبس نفسه ، في سنواته الأخيرة ، في حجراته ، وكثيراً ما كان يلازم الفراش . وأضناه الألم ، وفقد بسمته الحميلة المألوفة ، التي كانت تحببه إلى أصدقائه ، وأصبح دائم العبوس ، وهو يكاد يسمع كل يوم عن هجمات جديدة يوجهها إليه البروتستانت والكاثوليك . ومع ذلك فقد كانت ترد إليه يومياً تقريباً رسائل ، تفيض بالإخلاص والاحترام ، من ملوك أو بطاركة أو سياسيين أو علماء أو مالين ، وكان مسكنه كعبة يحج إليها الأدباء . وأصيب في السادس من يونيو عام ١٥٣٦ بدوسنطاريا حادة ، وعرف أنه سوف يموت وشكاً ، ولكنه لم يطلب قسيساً أو كاهناً يعترف له ، ومات (١٢ يونيو) ،

دون أن تجرى له الطقوس الدينية ، التي فرضتها الكنيسة ، وأخذ يكرر مبتهلاً اسمي مريم والمسيح . وشيعته بازيل في جنازة تليق بأحد الأمراء ، ودفن في مقبرة الكاتدرائية . واشترك علماء الإسانيات وأسقف المدينة في إقامة لوح حجري فوق جثمانه ، ولا يزال هذا اللوح في مكانه ، وقد أشادوا فيه بما اتصف به من «سعة علم لا تضارع في كل فرع من فروع المعرفة» . ولم يترك في وصيته ميراثاً لأغراض دينية ، ولكنه خصص مبالغ للعناية بالمرضى أو المسنين ، ولتقديم صدقات للفتيات الفقيرات ، ولتعليم الشبان الواعدين .

ويتذبذب موقفه في الأجيال القادمة مع تذبذب هيبة عصر النهضة ، فكل الطوائف تقريباً ، وصفته بأنه مذذب جبان ، وذلك في حماسة الثورة الدينية ، واتهمه أنصار الإصلاح الديني بأنه قادم إلى حافة الهاوية ، وأغرامم بأن يقفزوا ثم لاذ بالفرار . ووصف في مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيق فاسق ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك . وفي أواخر عام ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه « طفيلي متسول لديه من الشمايل ما يكفي لأن يتوصل إلى الحقيقة ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة لكي يعترف بها » (١٠٩) . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، عند ما انتشع دخان المعركة ، أسف مؤرخ بروتستانتي صائب الرأي على مفهوم أرازموس عن الإصلاح الديني ، وقال : « مفهوم لعالم . . . سرعان ما أوقف وطرح جانباً بوسائل فظة خشنة . ومع ذلك بحق لنا أن نتساءل أما كانت ، يعد كل شيء ، الطريقة البطيئة هي في النهاية أكثر الطرق أمناً ، وهل كان أي عامل من عوامل تقدم الإنسانية يمكن أن يكون بديلاً للثقافة على الدوام . لقد كان الإصلاح الديني في القرن السادس عشر من عمل لوثر ، ولكن إذا ظهر في الأفق أي إصلاح ديني جديد . . . فإنه لا يمكن أن ينهض إلا على أساس مبادئ أرازموس » (١١٠) . ويضيف مؤرخ كاثوليكي تقديراً يكاد يكون مطابقاً

مطابقاً لمقتضيات العقل : « إن أرازموس كان ينتمي فكرياً إلى عصر لاحق علمي وعقلاني أكثر من عصره . والعمل الذي قد بدأ به والذي أوقفته الاضطرابات التي حدثت في عهد الإصلاح الديني استأنفه علماء القرن السابع عشر في وقت لقي فيه قبولا أكثر » (١١١) ، وكان لا بد أن يكون لوثر ، ولكن عند ما قام بعمله ، وهدأت سورة الانفعال ، حاول الناس مرة أخرى أن يتشبهوا بروح أرازموس وروح النهضة ، وأن يجددوا ، في صبر وتسامح متبادل ، الجهد الطويل البطيء لتنوير أذهان الناس .